السعادة الكاذبة

أزهري أحمد محمود

مصدر هذه المادة :



دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تعالى ولي المؤمنين.. وناصر الصادقين.. والصلاة والسلام على صفوة المرسلين.. وعلى آله وأصحابه أئمة الدين.. وبعد:

أخي المسلم: ما زال الناس يفكرون في تحقيق أمانيهم.. وترى البعض؛ يطلق العنان لخياله؛ فيرسم لنفسه نموذجًا من الحياة يتمنى أن يعيشها..

والناس يتفاوتون في ذلك؛ فبعضهم يتمنى غايةً؛ إذا وصل إليها، لا يريد شيئًا بعدها.. والبعض تجدهم لا يقفون عند غاية؛ فهم يتمنون كل شيء!!

والفريقان يجمعهما: البحث عن السعادة.. والحياة الطيبة الهنيئة..

وفي سبيل تحقيق هذه الأمنية؛ فإنَّ سعى الناس شتَّى.. الكلُّ يلهث للوصول إلى ذلك الهدف بأنواع من الوسائل.. ولكن يا تُرى هل سيصل الجميع إلى تلك الغاية؟!

جواب تجده بين ثنايا هذه الصفحات.. والتي ستبرز حال فريق من الناس؛ تخبطوا في فهمهم للسَّعادة؛ فصاروا يسعون خلف كل سراب يظنونه ماءً!!

فإلى السَّعادة الكاذبة!!

**** اللاهثون!!****

أخي المسـلم: ها هي الشـمس تشـرق على النـاس، ومع إشـراقها تـرى النـاس يخرجـون إلى الحيـاة؛ والكـلُّ يرسم في مخيلته يومه الذي سيعيشه..

ولكن دعنا نقف مع فريق من النـاس؛ يلهثـون خلف الزيـادة.. الزيـادة في كل شيء!

ومفهـوم الزيـادة عند هـؤلاء لا يقف عند حـدٍّ معين؛ بل ولا يأخذ هديه من دينٍ ولا عقل..

ولكن يأخذ هديه من هـوى صـاحبه وشهوته!

إنَّه: السَّعي خلف السَّعادة الزَّائفة!!

﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [التكاثر: 1-4].

فإذا نـزل المـوت أدرك عشَّـاق الزيـادة؛ أنَّهم كانوا في غرور!

قـال ابن القيم: (التكـاثر؛ أن يطلب الرجل أن يكون أكثر من غيره. قال: وهو مذموم، إلا فيما يقرب إلى الله عزَّ وجلَّ).

أخي المسـلم: حب الزيـادة؛ داء أصـاب الكثيرين؛ حتى أصبحوا يلهثـون خلف كل ما يقرَّبهم إلى الزيادة والتكاثر!

وها هو النبي يحـذر أصـحابه من هـذا الداء الخطير..

قال رسـول الله : «**ما أخشى عليكم الفقـــــــــر، ولكن أخشى عليكم التكـــاثر**..» [رواه أحمـــد، وابن حبـــان، والحاكم/ صحيح الترغيب للألباني: 3256].

أخي المســـــلم: لا يخفى عليك حـــــال الكثيرين من أولئك اللاهـثين خلف كل بريق يلمع؛ طامعين أن يجدوا فيه شـيئًا يضـيفونه إلى رصيدهم من لذَّات الدنيا الفانية!

يودُّ أحدهم؛ لو أنَّ كل دينارٍ في جيبه!

وإذا بنى بناءً يودُّ لو أنَّه ناطَحَ السَّحَاب!

وإذا لبس ثوبًـــا؛ تمنَّى لو أنه لبس ثوبًا لا تصل إليه يد أحد!

وإذا ركب ســيارة؛ اختــار أغلاها ثمنًــا... وأشهرها في عالم الموديلات!

فـإذا لم تصل يـده إلى كـلِّ ذلـك؛ سـافر بخياله بعيـدًا؛ في عــالم الأحلام العريضــة.. وهو يظنُّ أن سعادته لا تكتمل إلاَّ بذلك!

تلك هي السَّــعادة الكاذبــة! الــتي يلهث

خلفها أولئك اللاهثــون.. فيا أيُّها اللاهثــون.. قفُوا! واتَّعظُوا! لقد وصف لكم النبي حال أهل الحرص.

قال رسول الله : «**ما ذئبان جائعــان أُرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المـال والشَّـرف لدينـه!**» [رواه الترمذي وابن حبان/ صحيح الــترغيب للألباني: 3250].

فلا تلهث خلف دنيا لا تبقى.. فإنك مهما أدركت منها؛ فلن تـدرك سـعادتها الكاذبـة.. ولكن عليك بالسَّعادة الحقيقــة: (طاعة الله تعالى، والتلذذ بمناجاته تبارك وتعالى).

**** إليك.. يا جامع المال! ****

أخي المسـلم: بعض النـاس سـعادته في جمع المال وكنزه.. رؤية الدينار أحلى عنده من رؤية أغلى عزيـــز.. وســـماع صـــوت الـدرهم ألذ عنـده من سـماع آيـات الكتـاب العزيز!

فــتراه صــارفًا عمــره في جمع المــال وتكثــيره.. وإذا أخــرج القليل منــه؛ فكأنما خرجت روحه!

ولكنه ما أزهده في جمع الحسنات.. وما أجوده بها وإن نزلت به جبال من السيِّئات!

فقف أيها اللاهي! واعلم أن الـــــدنيا قد أسكرتك.. وضربت على قلبك بقفل شديد!

المالُ فتنةٌ.. ولا يسـلم جامعه من شـره؛ إن لم يتق الله تعالى فيه..

قــــال رســــول الله ﷺ: «**إن لكل أمة فتنــــة، وفتنة أمــــتي المـــال**» [رواه الترمــذي، وابن حبــان، والحــاكم/ صــحيح الترغيب للألباني: 3253].

وعن ابن مسعود ﷺ أنه كان يعطي الناس عطــاءهم، فجــاء رجل فأعطــاه ألف درهم، ثم قال: خذها، فإني ســمعت رســول الله ﷺ يقــول: «**إنما أهلك من قبلكم الــدينار والـــدرهم، وهمـــا مُهْلِكـــاكُمْ**» [رواه البزار/ صحيح الترغيب: 3258].

فيا من ألهاك المال بجمعه! لا تظننَّ أنَّك ستكون سعيدًا بذلك.. فكم من جامع للمال يجمع لغيره! وكم من جامع للمــال؛ إنما هو خازن لغيره!

فهل نســيت المــوت وفظائعــه؟! أم هل نسيت القبر وشدائده؟!

تــذكَّر يــوم يودِّعك أهلــك.. ويقتســمون ميراثك!

تذكر يوم تُوضع في قبرك وحيدًا.. لا مال

ولا أهل!

ذهبت اللَّذاذات.. وبقيت الحسرات!

تركت مالك لغـيرك يقطفه سـهلاً.. هنيًّا.. وتبعك حسابه وحسراته!

لو كنت لبيبًــا؛ لعلمت أنَّ من الحــزم أن تقدِّمه بين يــــديك.. إلى دارك؛ الــــتي لا يسعدك فيها إلاَّ العمل الصَّالح!

عن عبد الله بن الشــخير قــال: أتيت النبي وهو يقرأ: ﴿**أَلْهَـاكُمُ التَّكَـاثُرُ**﴾ قـال: «**يقـول ابن آدم: مـالي مـالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاَّ ما أكلت فــــأفنيت، أو لبست فــــأبليت، أو تصدَّقت فأمضيتَ؟!**».

وقــــال رســـول الله : «**يتبع الميت ثلاثـــة، فـــيرجع اثنـــان، ويبقى معه واحــد: يتبعه أهلــهُ ومالــهُ وعملــهُ، وفيرجع أهلهُ ومالهُ، ويبقى عملـهُ!**» [رواه البخاري ومسلم].

فيا جــامع المــال! أتــدري أين ســعادتك الحقيقيَّة؟!

سعادتك الحقيقيَّة: أن تُقدِّمه بين يــديك.. والمساهمة في سبل الخير..

وأما سـعادتك الكاذبـة: أن تفـني عمـرك

في جمعه وكـــنزه؛ فتحبسه عن الضـــعيف الملهـــوف.. وتبخل في إنفاقه في وجـــوه الخيرات!

فأفق أيُّها الغافل! فإنَّك إن كنت من أهل السَّـــعادة الكاذبـــة؛ فإنما أنت في أمـــاني كالسَّراب!

والعاقل من عمل ليوم سـعادته الأكـبر.. وتجافى عن دار الغرور..

**** الغِنَى الكاذب! ****

أخي المســـلم: يحسب الكثــــيرون؛ أن الغني حقًا؛ هو صـاحب المـال الكثـير.. نعم هو غنيٌّ..

ولكن! هل هذا هو الغِنَى الحقيقي؟!

وهل سـألت نفسك يومًـا: من هو الغـني حقًا؟!

لقد أعمى حجب المـال قلـوب الكثـيرين من النَّاس؛ حتى أصبح الواحد منهم؛ إذا قلَّ ماله عدَّ نفسه في الأشقياء!

مســـاكين هـــؤلاء! لقد فـــات عليهم أن الغِنَى الحقيقي؛ لا أثر للمال فيه..

قـــال النـــبي ﷺ: «ليس الغـــني عن كـــثرة العَـــــرَض، ولكن الغِنَى غِنَى النَّفْس» [رواه

البخاري ومسلم].

فيا غافلاً عن أسباب السَّعادة! هذا هو الغني الحقيقي..

وأما غِنَى الدينار والدرهم؛ فذاك هو الغِنَى الكاذب!

إنَّ من جعل الله غناه في قلبه؛ فكأنَّما الدنيا كلها عنده! لأنه قد حاز كنزًا، من حازه فهو أغنى الأغنياء!

أتدري ما هو هذا الكنز؟!

إنَّه: (القناعة!) كنز أغلى من الذَّهب الإبريز.. وأنفس من الدُّر المكنون! قيل لبعض الحكماء: ما الغِنَى؟

قال: (قلة تمنِّيك، ورضاك بما يكفيك).

أخي المسلم: أنت بالقناعة أغنى الأغنياء.. وأسعد السعداء.. وأنت بدونها؛ فقير.. شقي.. وإن ملكت القناطير المقنطرة من الذهب والفضَّة!

عن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حكيم إنَّ هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له**

فيه، كالـذي يأكل ولا يشـبع...» [رواه البخاري ومسلم].

فلتعلم أيُّها الحـريص على الغِنَى؛ أنَّك لن تملك السَّعادة بالغِنَى! وإن السعيد حقًا من ملك القناعة!

كـــــــان محمد بن واسع رحمه الله يبل الخبز اليـابس بالمـاء، ويأكـل، ويقـول: (من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد!).

أخي المسلم: أولئك الرجال حقًا! عرفوا معنى السَّعادة الحقيقية.. ولم تغرهم الـدنيا ببريقها الكاذب! رفضوا كل سـعادة كاذبـة.. فكانوا أغنى الأغنياء من غير مال!

فاعرف أيها العاقل هذا الطريق.. وإيــاك أن تكون من المخدوعين بالسَّراب الكاذب!

**** إلى من طلب السعادة في الحرام! ****

أخي المســلم: لقد ميَّز الله تعــالى هــذا الإنسان بالعقـل، وأرسل إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام زيادة في الهُدى والبيان..

فإذا لم يعمل بما جاءت به الرسل عليهم الصــلاة والســلام فلن يحيا حيــاة الإنســان الذي كرَّمه الله تعالى بشـرعه.. بل سـيحيا حياة الفوضى والهمجيَّة!

وهي حــال الكثــيرين الــذين بحثــوا عن السعادة بعيدًا عن هدى الشرع الحكيم!

أخي المســلم: ما أقبح أن يحيا الإنســان حياة البهيمة.. فلا يكون له هم سوى إشـباع شهواته!

إن من أسرَتْهُ الشهوات، وكبَّلته بقيودها؛ لا تـــراه إلاَّ أعمى البصـــيرة.. متخبطًا في فعل الحرام!

وهو حال الكثيرين من أولئك الذين ظنوا أنَّ سعادتهم في اللَّهث خلف الشَّهوات!

قـــال رســـول الله ﷺ: «**إن مما أخشى عليكم بعـدي؛ بطـونكم، وفـروجكم، ومضلاَّت الأهـواء**» [رواه ابن أبي عاصم وغيره/ تخريج كتاب السنة للألباني: 14].

فيا مَنْ أســرفت في الشـهوات.. ويا مَنْ ضـيعت سـاعات عمـرك في الجـري خلف الحــرام! إنَّ عمر الحــرام قصــير.. وعقابه طويل!

قـــال رســـول الله ﷺ: «**الــدنيا حُلــوة خضـرة، فمن أخـذها بحقه بـورك له فيهــا، وربَّ متخــوِّضٍ فيما اشــتهت نفسه ليس له يـــــــوم القيامة إلاَّ النَّار!**» [رواه الطبراني/ صـحيح الـترغيب:

3219].

فيا باحثًا عن نشــوة السَّــعادة؛ اعلم أن السَّعادة ليست في كأس خمر تشـربه.. ولا عربــدة في ليلة حمــراء.. ولا نغمة مزمــار تسمعها.. ولا مال سُحْت تأكله..

كلُّ ذلك سعادة كاذبة!

قــال أبو هريــرة : (من زنى أو شــرب الخمــر؛ نــزع الله منه الإيمــان، كما يخلع الإنسان القميص من رأسه!).

وكثــير من أولئك المخــدوعين؛ تجــدهم ضائعين بين نـيران الشـهوات، وهم يظنونها نعيمًا وسعادة!

وخاصة الشــباب منهم؛ ممن اســتهوته فتوة الشباب وحرارته.. وإذا وُعظ أحــدهم؛ احتج لضــلاله: بأنه شــاب، ومن حقه أن يستمتع بشبابه! وكأنَّ الشاب عنده يجوز له أن يفعل ما يشاء!

وهــذا الفهم السَّــقيم؛ هو الــذي أوقع الكثــيرين من الشــباب في دوامة الفوضى وحياة اللامبالاة!

ولكن بعــدها ما الــذي اســتفاده هــؤلاء التُّعساء؟!

لقد كــانت النتيجــة: الانحلال الخُلُقي،

وأمـراض العصـر، وأعظمهـا: البعد عن الله تعالى!

وهــذه ثمــار حصــدها كل أولئك الــذين ضيَّعوا ساعات عمرهم في الشهوة الحرام؛ بحجة السعادة الكاذبة!

وقد نسي هؤلاء الغافلون؛ أن السَّعادة لا تكون في الحرام!

فيا غــافلاً! مــتى رأيت ســعادة يجــني صاحبها الأمراض والأحزان؟!

ولكن عليك بالســعادة الحقيقيــة.. ودع عنك السَّعادة الكاذبة!

** الدنيا منزل السَّعادة الكاذبة! **

أخي المســلم: كــلُّ أولئك المخــدوعين ببريق السَّعادة الكاذبة؛ إنما خـدعتهم الـدنيا الفانية؛ بزخرفها الكاذب!

قـال الله تعـالى: ﴿**اعْلَمُـوا أَنَّمَا الْحَيَـاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْـوٌ وَزِينَـةٌ وَتَفَـاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُــــهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَــــرَاهُ مُصْـفَرًّا ثُمَّ يَكُـونُ حُطَامًا وَفِي الْآَخِـرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْـوَانٌ**

وَمَا الْحَيَــاةُ الــدُّنْيَا إِلَّا مَتَــاعُ الْغُــرُورِ [الحديد: 20].

أخي المسلم: ذلك هو مثل الحياة الـدنيا؛ الـذي ضـربه لك الله تبـارك وتعـالى.. وهو مثل كل نعيم في الدنيا!

فهل فهم أهل الغفلة هذا المثل؟!

إن من عرف الدنيا وتقلبها بأهلهـا، وودها الكاذب؛ أيقن أن السعادة الحقيقية لا تكون منها! وإنما الدنيا دار عمـل، ومعـبر إلى دار البقاء.. والنَّعيم الدَّائم..

والسعداء في الدنيا حقًا؛ هم الذين أخذوا بالأسباب التي سـتكون سـببًا في سـعادتهم الدائمة يـوم القيامـة.. وكما سـعدوا بهـذه الأسباب في الدنيا؛ سيسعدون بها غدًا..

أخي المسلم:

إن السـعادة الكاذبـة: هي ذاك الــبريق الخادع؛ من زخرف الـدنيا الفـاني؛ من حب لجمع المــال، وحب للتفــاخر في الغــنى والتكاثر، وإدمان للشهوات المحرمة، وتُّمرد على أوامر الله تعالى.. وفعل كل ذلك رغبة في الوصول إلى تلك السَّعادة المزعومة!

ولكن السعيد حقًا: من وفَّقه الله تعـالى، وانشــغل بخدمة مــولاه تبــارك وتعــالى..

واستعد ليوم الرَّحيل..

هــذا هو الســعيد حقًــا.. وأما الأول فهو الشقي.. صاحب السعادة الكاذبة!!

والحمد لله تعــالى.. والصــلاة والســلام على النبي محمد وآله والأصحاب..

* * * *